كنوز من السنة

الآثام بين الطبائع والبيئات



الشيخ/ محمد الغزالي

تتفاوت الذنوب والآثام تفاوتًا واسعًا حسب تفاوت الطبائع والبيئات، بعض الناس يحب الثراء ويسعى إليه من كل ناحية وبأية وسيلة، وبعض آخر يحب الرياسة والظهور ولا يدع فرصة للوصول إليهما إلا اهتبلها.

وهناك من يتعسف الطرق وراء شهواته، وأغلب الناس لهم مآرب تحتاج إلى رقابة وضبط وهي تتحرك وراء قوله وعمله ولا ينجو من عقباها إلا من وعى هذه الآيات:

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾

(النازعات: ٣٧ - ٤١)

وللبيئات أثر كبير في اعوجاج المرء أو استقامته، فهناك بيئات تعين على الطاعة، وأخرى تعين على الانحراف.

كما أن هناك أماكن تعز وأخرى تذل، وقد أشار إلى ذلك (المتنبي) عندما قال:

وكل امرئ يُولي الجميلَ محبب
وكل مكان ينبت العزَّ طيب

وقد تكون الأرياف أعون على الطاعة من المدن.

والمتدبر لتعاليم الإسلام يراه استنكر العصيان، ولكنه لم يستغربه على النفس البشرية

﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

(يوسف: ٥٣)

إن قلةً ممَّن عصم الله تترفع عن المعاصي وتأنف من الهبوط إليها. أما السواد الأعظم فله شأن آخر

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ (النجم: ٣٢)

إن معادن الأرض مختلفة، والناس معادن؛ لأنهم من الأرض ينشأون، ثم إن هناك خصائص نفسية وعقلية يَنْشئون بها تنحدر إليهم من وراثات شتى؛ ولذلك كله أثره في النزعات والاتجاهات، وعالِم الغيوب سبحانه هو القائم على كل نفس بما

كسبت، وحسابه جامع بين الدقة والعدالة والرحمة وتقدير شتى المؤثِّرات على السلوك الإنساني.

ونلحظ أن المولى سبحانه يعفو عن اللمم. فما اللمم؟

قال بعض العلماء: المعاصي التي يقع فيها المسلم وهو لها كاره ومن عواقبها خائف، كأن قدمه زلت إليها في ظروف قاهرة، فما يكاد يقارفها حتى يفارقها وهو نادم حزين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠١)

لقد عمي عن الرؤية حينًا، ثم عاد له بصره.

وأصحاب هذا الرأي يقولون: إن اللمم يتناول الكبائر، ويستشهدون بقوله تعالى في سور أخرى:

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾

(النساء: ١١٠)

وبقوله تعالى في وصف المتقين:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾

(آل عمران: ١٣٥)

قال أبو صالح: سُئلتُ عن قول الله عز وجل: «إلا اللمم» فقلت: هو الرجل يلم بالذنب ثم لا يعاود، فذكرت ذلك لابن عباس فقال: «أعانك عليها ملك كريم». أي صوب إجابته.

وذكر ابن عباس في تفسير قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾

(النجم: ٣٢)

قول رسول الله ﷺ:

«إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك لا ألَمَّا؟»[1]

ومع ذلك فقد جاء عن ابن عباس أن المراد: الصغائر التي تتولد عن اضطراب الغريزة الجنسية، قال: «ما رأيت شيئًا أشبه باللمم مما روى أبو هريرة عن النبي ﷺ: «إن الله عز وجل كتب على ابن آدم حظَّه من الزِّنى أدرك ذلك لا محالة، فزنى العينين النظر وزنى اللسان النطق، والنفس تتمنَّى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك كلَّه أو يكذِّبه» (متفق عليه).

وليس معنى الكتابة أن المرء مجبور. كلا، المعنى أن تصرفاته كلها محسوبة عليه، فالعين الجريئة واللسان البذيء والنفس المتطلعة إلى الحرام، كل ذلك عليه وزره، ولكن الحد الشرعي لا يُقام إلا على المواقعة الفاحشة، وما قبل ذلك صغائر تغفرها التوبة السريعة كما تغفرها العبادات المكتوبة.

والإسلام حاسم في أن الله غافر الذنب وقابل التوب، وأن كهنة الأديان لا يملكون من أمر المغفرة قليلًا ولا كثيرًا

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝١٢ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾

(العنكبوت: ١٢، ١٣)

إنك إذا وقع بثوبك درن غسلته، ويستحيل أن ينظَّف الثوب إلا بذلك، أنت مالك أمرك وصانع مستقبلك، فإذا اعوججت فاستقم ثم عد إلى ربك:

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾

(المؤمنون: ١١٨)

(١) سنن الترمذي قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث زكريا بن إسحاق (المجلة).